﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ انقيادِ الكون كلِّه بعدَ بيان جُحود معظمِ النّاس

لمّا أخبرتِ الآيةُ السّابقة عن فرق الطّائعين وغير الطّائعين، وكان المؤمنون بالله حقًّا قلّةً في مقابلةِ غيرهم، ناسبَ الإخبارُ عن أنَّ الكون كلَّه يؤمنُ بالله ويسجدُ له عن محبّةٍ صادقةٍ وطاعةٍ خالصة، وأنَّ الَّذين ندّوا عن هذا السّجود والطّاعة والانقياد لله هم قلّةٌ في الكون، مهما كانوا كثرةً في الناس، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فهو انتقالٌ من بيانِ جحود مُعظم النّاس في مقابلة إذعانِ الكونِ كلِّه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْجُدُ﴾: أصلُ (سجد) يَدُلُّ عَلَى تَطامُنٍ وذُلٍّ، يُقالُ: سَجَدَ، إذا تَطامَنَ، وكُلُّ ما ذَلَّ فَقَدْ سَجَدَ، وأسْجَدَ الرَّجُلُ، إذا طَأْطَأ رَأْسَهُ وانْحَنَى[1]، وسَجَدَ البَعيرُ: خَفَضَ رَأْسَهُ عِنْدَ رُكوبِهِ وسَجَدَ الرَّجُلُ: وضَعَ جَبْهَتَهُ بِالأَرْضِ، والسُّجودُ للّه تَعالَى في الشَّرْعِ: عِبارَةٌ عَنْ هَيْئَةٍ مَخْصوصَةٍ، والمَسْجِدُ بَيْتُ الصَّلاةِ، والمَسْجِدُ أَيْضًا مَوْضِعُ السُّجودِ مِنْ بَدَنِ الإنْسانِ، والجَمْعُ مَساجِدُ[2]، والسُّجود عبارةٌ عن التّذلّل للّه وعبادته، وهو عامٌّ في الإنسان، والحيوانات، والجمادات، وذلك ضربان؛ **الأول:** سجود باختيار، وليس ذلك إلا للإنسان، وبه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سجد).
(2) الفيّومي، المصباح المنير: (سجد).

يَستحقُّ الثواب فضلًا ورحمةً، **والثاني** سجودُ تسخير، وهو للإنسان، والحيوان، والنّبات، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: 15][1]، والسُّجود في الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يشمل النوعين التسخيريَّ والاختياريَّ.

2) ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾: أصلُ (دبَّ) حَرَكَةٌ عَلَى الأَرْضِ أَخَفُّ مِنَ المَشْيِ، تَقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكُلُّ ما مَشَى عَلَى الأَرْضِ فَهو دابَّةٌ[2]، والدَّبُّ والدَّبيبُ: مشيٌ خفيفٌ، ويستعملُ ذلك في الحيوان، وفي الحشرات أكثر، ويُستعملُ في الشّراب والبلى - حشرات الثياب - ونحو ذلك ممّا لا تدركُ حركتَهُ الحاسّةُ، ويستعملُ في كلّ حيوان - حيّ متحرِّك - وفي هذا المعنى جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: 45]، وقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: 164]، وقوله: ﴿*وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6][3]، وأمّا تَخْصيصُ الفَرَسِ والبَغْلِ بالدّابَّةِ عِنْدَ الإطْلاقِ فَعُرْفٌ طارِئٌ، وتُطْلَقُ الدّابَّةُ عَلَى الذَّكَرِ والأُنْثَى، والجَمْعُ: الدَّوابُّ[4]، والمراد هنا عمومُ مَن يتحرَّكُ على ظهر الأرض، ما عدا الإنسانَ لتخصيصه بالذكر بعدَ ذلك معَ استثناء بعضه من السُّجود.

3) ﴿حَقَّ﴾: أصْلٌ (حقَّ) يَدُلُّ عَلَى إحْكامِ الشَّيْءِ وصِحَّتِهِ، ثُمَّ يَرْجِعُ كُلُّ فَرْعٍ إلَيْهِ بِجَوْدَةِ الاسْتِخْراجِ وحُسْنِ التَّلْفيقِ، ويُقالُ حَقَّ الشَّيْءُ وجَبَ[5]، والحَقُّ خِلافُ الباطِلِ، وهو مَصْدَرُ حَقَّ الشَّيْءُ مِنْ بابَيْ (ضَرَبَ وقَتَلَ) إذا وجَبَ وثَبَتَ[6]، ويستعمل الحقُّ استعمالَ الواجب واللّازم والجائز، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: 47]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: 103][7] ومعنى ﴿حَقَّ﴾ هنا: وجب عليه ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ لكُفرِه باللّه[8].

(1) الراغب، المفردات: (سجد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبّ).
(3) الراغب، المفردات: (دبّ).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (دبب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقَّ).
(6) الفيومي، المصباح المنير: (حقق).
(7) الراغب، المفردات: (حقّ).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 568.

4) ﴿يُهِنِ﴾: أصلُ (هون) يَدُلُّ عَلَى سُكونٍ أَوْ سَكينَةٍ أَوْ ذُلٍّ، ومِنْ ذَلِكَ الهَوْن: السَّكينَةُ والوَقارُ، قالَ اللهُ سُبْحانَهُ: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، والهونُ: الهَوانُ، قالَ ﷻ: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ [النحل: 59][1]، ويقال: فيهِ مَهانَةٌ، أيْ: ذُلٌّ وضَعْفٌ، ويَتَعَدَّى بِالهَمْزَةِ فَيُقالُ أَهَنْتُهُ، واسْتَهَنْتُ بِهِ بِمَعْنَى: الاسْتِهْزاءِ والاسْتِخْفافِ[2].

والهَوانُ على وجهين: **أحدُهما:** تذلّلُ الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضةٌ، فيمدحُ به نحو قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63].

الثاني: أن يكونَ من جهةِ مُتسلّطٍ مُستخفٍّ به فيذمٌّ به، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: 93]، وقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩٠﴾ [البقرة: 90]، وقوله: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: 18][3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ ما في الكون منقادٌ؛ إلا شواذَّ الخَلقِ ونَكِرات البشر

تُخاطب الآية النَّبيَّ ﷺ، وكلَّ مَن يقع عليه الخطاب، ألم ترَ بقلبك، فتعلمَ أنَّ اللهَ يسجدُ له مَن في السَّماوات مِن الملائكة، ومَن في الأرض مِن الخلْق مِن الجنّ وغيرهم، والشّمسِ والقمرِ والنُّجومِ في السماء، والجبالِ، والشَّجَر، والدوابِّ في الأرض، وسجودُ ذلك ظلُّه حينَ تطلعُ عليه الشّمسُ، وحين تزول، إذا تحولّ ظلّ كلّ شيء، وكثيرٍ مِن الناس يؤمنُ باللهِ ويخضعُ لتعاليمه فاسْتَحقّوا بذلك الجنة فضلًا ورحمةً، وكثيرٍ مِنهم لم يؤمنْ به ولم ينفّذْ تعاليمَه، فاستحقّوا بذلك العذابَ والإهانة، ومَن يطردْه اللهُ من رحمتِه، ويُهِنْه؛ لا يقدرُ أحدٌ على إكرامه، إنَّ اللهَ قادرٌ على كلِّ شيءٍ، فهو يفعلُ ما يريد[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هون).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (هون).
(3) الراغب، المفردات: (هان).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 586، ومجموعة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 490.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْل الآية عمّا قبلها:

الآيـــةُ تحملُ تعليلَ المعاني المتقدِّمة

لمّا كان جميع ما تقدم في هذه السّورة دالًّا على أنَّه سبحانه على كلِّ شيء قدير، وأنه يفعلُ ما يريد، وختمَ ذلك بأنه بكلِّ شيء عليم لم يغِبْ ولا يغيبُ شيء عنه، فاقتضى ذلك قيوميّتَه، وكان بحيث يستعظمُ لكثرة الخلائق فكيف بأحوالهم، قرر ذلك في جوابِ مَن كأنَّه سأل، فهي في معنى العلَّة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾[1]؛ وتحتملُ أن تكونَ جوابًا لسؤالٍ يستعظمُ أنْ يفصلَ الله بين المهديِّ وغيره، فأجابَ بأنَّ الخلائق كلَّها تسجدُ لله وهو عالمٌ بها وقادرٌ على إيجاد ذلك السُّجود، فهي استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤال مفترضٍ، كما أنَّ هذه الجملة إنشائيةٌ لفظًا ومعنًى، والجملة السّابقة لها خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى، فلا يجوز الوصلُ بينهما لاختلافهما في ذلك.

براعةُ الاستفتاح بالاستفهام:

دعـــوةُ الأذهـــانِ التَّفكُّر في شأنِ الأكوان

استهلَّتِ الآية بجملة الاستفهام: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ﴾، والاستفتاح بالاستفهام التقريري لإثارةِ الذِّهن للتَّفكُّر في قدرة الله تعالى الموجِبة للشُّكر والعبادة والحمد، والتأمُّلِ فيما يجب أن يكون عليه العبدُ تجاهَ خالقه وبارئه ورازقه، بعد ذكر طائفة من الفِرَق الَّتي انحرفَت عن طريق الحقِّ، ووقعَتْ في حبائل الشَّيطان وأوهامِ النَّفس والهوى، كما أنَّ الاستفهام يوحي بعنصرِ الحوار بين طرفين ممّا يولِّد حركيّةً في التلقّي وتفاعُلًا مع النصِّ بشكل أعمق.

غرضُ الاستفهام وفوائده:

تقريرُ المُخاطَبِ المؤمِن والإنكارُ على الكافر

الاستفهامُ الواردُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ﴾؛ لتقرير النبيِّ ﷺ والمؤمنين به، وإلجائهم إلى الاعتراف بمضمون

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 25.

الكلام والإقرار به، وهو معنى قول ابن عاشور: "أو يكون الاسْتفْهام لإنكار النَّفي وتقرير المنفيِّ"[1]، ولا يشترطُ في الاستفهام التقريري أن يكونَ المقرّر عليه عالمًا بمضمونه، فقد يقرَّر مَن لا علمَ له بالمضمون لغاية الوعظ والإرشاد، فهو تقريرٌ يبتغي التعليمَ والتفهيمَ بأسلوبٍ مليء بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن فوائد الاستفهام ودلالاته أنَّه مثيرٌ للتنبيه واليقظة، وقد حملَ الاستفهامُ معه - بجانب التقرير والتنبيه - "الحثَّ على التأمُّل، وتمجيدَ الله، والإخلاصَ في طاعته، واستشعارَ جلاله وكماله"[2]، كما دلَّ الاستفهام مع التقرير على التعجيبِ من حال المُمتنعين عن السُّجود له، النّاكثينَ عن طاعته، وقد سجد له الكونُ كلُّه وأذعن، وليعلم هؤلاءِ الناكثون عن السُّجود له سبحانه أنَّه غنيٌّ عنهم.

أو يكونُ الاستفهام للإنكار، فقد أنكر على المخاطبين بالجملة عدمَ علْمهم بدلالة أحوالِ المخلوقات على تفرُّد الله بالإلهيَّة[3].

ويتعيَّن غرض الاستفهام للتقرير أو الإنكار بحسب المخاطَب، ولا إشكال في تعدُّد الأغراض؛ فإنَّ النكات لا تتزاحم وإنْ كان الراجح إرادةَ التقرير للمنفي.

دلالةُ دخولِ النَّفي بأداةِ ﴿أَلَمْ﴾ على الفعل ﴿تَرَ﴾:

تحويل الزمن من المضارع إلى الماضي

استعمل النَّظم الكريم الأداة ﴿أَلَمْ﴾ في دخولِها على المضارع ﴿تَرَ﴾ دون أدوات النَّفي الأخرى مثل (لا)، فلم يقل: (أفلا ترى)، وذلك لقصد انصباب الفهم على الزمن الماضي دون المستقبل، والمعنى: (أما رأيتَ فيما مضى؟) ونكتةُ دخولها على المضارع لإثارةِ دعوة المخاطب في الرؤية المتجدِّدة، فإنَّ المضارع فيه استمراريَّة،

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 31.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 391.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 226.

فجمع هذا التركيب بين دلالة الماضي والحاضر المستمرّ، كأنَّه قال له: ألم ترَ فيما مضى، وفيما هو كائنٌ، وسيكونُ سجودَ كلِّ المخلوقات له تعالى؟ وعند تحول المضارع إلى الماضي يكون التقرير أجدى وأنفع في الدلالة؛ لأنَّ التقرير إنَّما يكون على شيءٍ علمَه المخاطَب ويدعوه المُستفهِمُ إلى الإقرار به والاعتراف، فيناسبُه التعبير بالماضي صيغةً أوْ زمنًا ليكونَ التقريرُ على شيء واقعٍ فعلًا، ولا سبيلَ للإنكار أوِ الرّفض أوِ النَّفي لوقوعه.

سرُّ التَّعبيرِ بالرؤية دون العلم:

معنى (الرؤية) في الآية رؤيةُ العِلْم، فمعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألمْ تعلمْ، الَّذي جوابه: بلى رأيتُ، أو بلى علمتُ؛ لأنَّ العلمَ بسجود الكائنات غير المرئيَّة بالبصر لا يكون إلا بإعلام منه سبحانه، والتعبيرُ بالرؤية وإرادة العلم للإشعار بصدقِ الخبر، وأنَّه بلغ من الصِّدق واليقين مرتبةَ المرئي المشاهَد بالبصر رؤيةً واضحةً كاملةً، لا لبسَ فيها، وفي الانتقال من (العلم) إلى (الرؤية) مجازٌ مرسَلٌ علاقته السببيّة؛ إذ الرّؤيةُ من أسباب حصولِ العِلْم، فعبّر بالسَّبب وأراد به المسبَّب؛ للدِّلالة على كمالِ صدقِ الخبر حتَّى كأنَّه مشاهدٌ محسوس.

الإشعارُ بصدق الخبر ويقينيَّته كالمرئي بالعين بلا التباس

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيبة إلى الخِطاب:

الالتفاتُ من الغَيبة في الآية السّابقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ إلى الخِطاب في هذه الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ﴾، فلم يقل: وأنَّ الله يسجُدُ، تطريةٌ للكلام وتنشيطٌ لذهن السّامع، ولفتٌ لغير المنتبهين إلى قيوميّته سبحانه على كلِّ شيء، ولأنه سبحانه لا يحتاج إلى اعترافهم بهذا، فهو الغنيُّ عنهم وعن كلِّ مخلوقاته، لكنَّه سبحانه يُقدِّر ويكافئُ مَن يَخضع لطاعته ويُقِرُّ بربوبيته وألوهيَّته، وهم أكثر ما في الكون ومَن فيه، إلا هذه النّسبةَ من بني البشر

مفاجأةُ المخاطَب بالسُّؤالِ تحفيزٌ على ضرورةِ الامتثال

وأضرابِهم من الشياطين، مع ما في الالتفات من عنصرِ المفاجأة الدّالِّ على ضرورة الاستجابة لما تضمَّنته من الحثِّ على الرُّؤيةِ.

بلاغةُ الجملةِ السّادَّة مسدَّ مفعولي ﴿تَرَ﴾:

تلاحمُ الأجزاءِ وتعاضُدُ التَّركيبِ أقوى دلالةً وأمتنُ أثرًا

قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ﴾ جملةٌ مكوّنةٌ من ﴿أَنَّ﴾ واسمِها وخبرِها، سادّةٌ مسدَّ مفعولي ﴿تَرَ﴾، الَّتي هي هنا بمعنى (تعلم)، ورأى إذا جاءت بمعنى (علم) نصبتْ مفعولين، ونكتةُ مجيء مفعولَي فعل الرؤية جملةً دون أنْ يكونا مُفردَين، فيُقال مثلًا: (ألم ترَ سجود المخلوقات واقعًا لله) تلاحمُ أجزاء الجملةِ، وتضافرُ عناصرها حولَ دلالة واحدة، حتى تبدوَ من شدَّةِ تلاحُمِها كأنَّها كلمةٌ واحدةٌ، يُطلبُ التقريرُ عليها والاعترافُ بمضمونها، مع ما في الصورة التركيبية من قوَّة، بمجيء أداة التَّوكيد، ولفظ الجلالة مسندًا إليه، والمسند الفعلي، فهذه البراعة والقوّةُ ما كانت لتكون لو أتى مفعولا فعلِ الرُّؤية مفردين.

فائدةُ ذكر لفظِ الجلالة:

لفظُ الجلالةِ مُستجمِعٌ لصفات الكمال كلِّها

أوثرَ التَّعبيرُ باسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ ظاهرًا مع أنَّ المقامَ يُناسبه الإضمارُ؛ لتقدُّم ذكره في الآية السّابقة؛ لما ينطوي عليه من معنى الهَيْبة والجلال المُلائم للمقام، وهو المُناسبُ لذكر السُّجود، وهو معنًى من معاني العبادة الحقَّة الَّتي لا تكون إلا لله سبحانه، وفيه إشارةٌ إلى علَّة السُّجود له تعالى؛ لأنَّ لفظَ الجلالةِ مُستجمِعٌ لصفات الكمال كلِّها، فيكونُ من تعليق الحكمِ على المُستجمع لذلك كلِّه، فيشير إلى التعليل، فيكون كدعوى الشيء ببيِّنةٍ وبُرهان.

نكتةُ مجيءِ المسنَد فِعْلًا ﴿يَسۡجُدُ﴾:

السُّجودُ مُستمِرٌّ في الكونِ كلِّه والزّمانِ جميعِه

جيء بالمسند فعلًا مضارعًا في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ﴾ لدلالته على تجدُّد الحدث وعدم ثباته مع استمراره المتجدّد بتجدد الآنات والأزمنة والأمكنة، فالسُّجودُ لله تعالى متجدِّد، وكلُّ نوعٍ من

السّاجدين له هيئةُ سجود تخصُّه قد أذِن الله له بها، فالسجودُ لله ﷻ لا ينقطعُ عن الكون لحظةً، بل يستمرُّ كأثَرٍ لتعدُّد السّاجدينَ وتنوّعِهم، سواءٌ في الأرض أم في الملأ الأعلى.

بلاغةُ التَّعريض بذكر لفظِ السجود:

خصَّ النَّظمُ لفظَ السُّجود بالذِّكر دون لفظِ العبادة، الَّذي هو أوسعُ وأعمُّ دلالةً؛ للتَّعريضِ بمن يأنف السُّجودَ لله تعالى من المشركينَ، والتحقيق أنَّ لفظ (السجود) في الآية بمعنى: الخضوع والانقياد بما يشمل هيئة الركوع ومطلقَ الانحناء للتعظيم والتبجيل والتكريم، وهو بهذا المعنى يتَّسق مع لفظ (العبادة) الدالِّ لغةً على التذلُّل والخضوع، لكنه يفترقُ عنه في أنّ السُّجود تذلّلٌ يرافقُه انحناءٌ في الهيئة، فيكون لاختيار السّجودِ دونَ العبادة تحقيقٌ لكمالِ العبوديَّة والتذلُّل، فهي أدقُّ تصويرًا لحالة سجودِ الكون وما فيه لخالقِه ومدبِّره.

لفظ ﴿يَسْجُدُ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

السُّجودُ لفظ مشترك يُراد به عمومُ المجاز

لفظ السجود ينصرف في الحقيقةِ الشَّرعيَّة إلى السُّجود المعروف في الصَّلاة، الَّذي هو أحد أركانها، ويعني الهويَّ على الأرض خُضوعًا لله وتذلُّلًا، كما أنَّه في حقيقته اللُّغويَّة إنما يعني الذلَّ والتطامن[1]، وهو مفيدٌ الانقيادَ والطّاعة والخضوع، وبناءً على هذين التأصيلين صار اللَّفظ مُحتمِلًا للتَّوجيهين الآتيين:

الأوَّل: حمله على حقيقته الشرعية، وحصوله يكون من الملائكة ومن الإنس والجنِّ، والآية عليه خبرٌ مرادٌ به الطّلب[2]، وهو مجازٌ لغويٌّ.

الثّاني: حملُه على معناه اللغوي الَّذي هو الذُّل والتَّطامن مع انحناءٍ للجسم أو الجبهة أو أيّ جزءٍ في المخلوقات، وهذا الثاني

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سجد).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 370.

أوسعُ معنًى وأشملُ، من حيث إنَّ الانقيادَ قَدْرٌ مشتركٌ بين الجميعِ؛ "فيصحُّ إطلاقُه على العُقلاء السّاجدينَ وغيرهم، وعلى ظلالِهم أيضًا"[1]، وبهذا يكون النظمُ قد جمعَ في لفظٍ واحدٍ بينَ الحقيقة الشرعيَّة والحقيقة اللغويَّة؛ ليكون معنًى مناسبًا مع جميع المخلوقات الَّتي يقع السُّجود منها بهيئات مختلفة.

معنى (اللّام) ودلالتها:

تحتملُ اللّام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ﴾ أن تكون للاستحقاق على معنى سجودِ العبادة، فالسُّجود بهذا المعنى الشرعيِّ إنّما هو مُستحَقٌّ للّه وحدَه لا يجوزُ إشراكُ غيره فيه، وأنّ مَن سجدوا لغيره سبحانه هم ظالمونَ باغونَ على ما يستحقّه اللّه تعالى، وأما احتمال كون اللام للاختصاص على معنى مطلق الانقياد مع خفض في الهيئة فلا يصحُّ؛ لأنَّ المعنى اللغويَّ غيرُ مختصٍّ به تعالى، أوْ للتَّبيينِ كالتي في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: 1] وفي قولهم: حمدت اللّه لك[2]، والأرجحُ أنْ تكون اللامُ للتعدية تعيينًا للمسجودِ له، وإيصالًا لمعنى الفعل إلى الذات العلية، وتخصيصًا للسُّجود به كأنَّه الغرض الأصليُّ من السُّجود.

تحتملُ اللّام الاستحقاقَ والاختصاصَ والتَّبيينَ والتعديةَ

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾:

قدَّم النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرور على الفاعلِ في ﴿يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لإفادةِ الحصر والاختصاص، فالانقيادُ في السَّماوات والأرض محصورٌ باللّه ﷻ، وهو قصر إضافيٌّ للصّفة - أي السُّجود بمعنى مطلق الانقياد - على الموصوف سبحانه.

لا يكونُ السُّجودُ إلّا لله تعالى على التَّحقيق

وأما قصر العبادة الحقّة عليه وحدَه دونَ سواه، فالسُّجود بمعناه المتبادر، وهو الهويُّ على الأرض بِقَصْدِ الخُضوعِ قَدِ اخْتُصَّ اللّه

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 8/ 489.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 114.

بِهِ عَلَى الإطْلاقِ؛ لِأنَّ المَوْجوداتِ العُلْيا والمُؤْمِنينَ باللّه يَسْجُدونَ لَهُ، والمُشْرِكينَ لا يَسْجُدونَ - بمعنى السُّجود المذكور - لِلْأصْنامِ ولا للّه تَعالَى[1]، وهو قصرٌ حقيقيٌّ لا يشاركه فيه أحدٌ، كما أنّه دالٌّ على الاهتمام، فالتقديمُ هنا للأهمِّ، وهو المنقاد له، وهو اللّه سبحانه المعبود بحق دون سائر من عُبِد من دونه.

سرُّ استعمال الاسم الموصول ﴿مَن﴾ دون (ما):

السُّجود يجعل غير العاقل عاقلًا والعاقلُ الَّذي لا يسجدُ كالبهائم الَّتي لا تعقِل

أوثر التعبير بـ ﴿مَن﴾ الموصوليَّة، وهي دالَّةٌ على العاقل، مع كون الظِّلال المذكورة في الآية داخلةً فيها، وهي ليست من العقلاء، من باب تغليب العاقل على غيره[2]، أوْ يكون تخصيصُ العقلاء ملحوظًا فيه أنَّهم العمدة، وأنَّ انقيادهم دليلُ انقيادِ غيرهم[3]، وهناك لفتةٌ أخرى وهي أنَّ السُّجود من صفات العقلاء، فعاملَ غيرَ العقلاء معاملةَ العقلاء بسببِ سجودِهم، تعريضًا بمن أنِف السُّجود للّه تعالى، فكأنَّ من سجد للّه تعالى دخلَ في دائرة العقلاء، ومن سواهم فهو أدنى من البهائم.

دلالة حرفِ الظَّرفيَّة:

الظَّرفيَّة دالّةٌ على الاستغراق والشّمول

دلَّ حرفُ الظرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على الاستغراق والشمول للمكان، كما استغرقت ﴿مَن﴾ جميع المخلوقات، فليس هنالك من مكانٍ في السَّماء والأرضِ يخلو من مُنقادين للّه ﷻ، حتى مَن لم يَسجدوا له سجودَ عبادة كالكفّار والعُصاة في الأرض، فإنَّهم مُنقادون للّه تعالى من حيث إنَّ حياتَهم ومماتَهم بيد اللّه وأمرِه، وحركةَ أجزاءِ أجسادِهم الباطنةِ والظّاهرة كلِّها تعملُ بإرادته سُبحانه وإذنه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 110.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3918.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 119.

نكتةُ جمعِ السَّماوات وإفرادِ الأرضِ:

الأرضُ مفردٌ لفظًا جمعٌ دلالةً والسَّماوات جمعٌ لفظًا ودلالةً

جمعُ السّماوات وإفرادُ الأرض عادةٌ قرآنية، فلم يَرِدْ أبدًا في الكتاب العزيز لفظُ الأرض مجموعًا على (أرَضين)؛ لأنَّها تردُ غالبًا مُرادًا بها "الجهة، فهي بمنزلة السَّفْل والتّحْت، فلا معنى لجمعِها، كما لا يُجمعُ الفَوق والتَّحت والعُلو والسَّفْل"[1]، و(أل) في الأرض للجنس، فيصدقُ بالجمعِ من حيثُ الدِّلالة، ويدلُّ على ما دلَّ عليه لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ المجموع.

ولذا لما استُدْعي في تركيبٍ أن يَجمَع لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في مقابلةِ لفظ (السّماء) المجموع، لكونه أراد بها الذات والعدد، وليس جهة السفل، انظر كيف عبَّر القرآن؟ إنَّه قابله بأسلوب عجيبٍ، وذلكم المعنى هو قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: 12]، فإنَّ الأرضَ لا نسبةَ لها إذا قيستْ بالسَّماوات وسِعَتِها، بل هي بالنِّسبة إليها كحصاةٍ في صحراء أوْ حَلْقة في فَلاة، فهي وإنْ تعدَّدت كالواحد القليل، فاختيرَ لها اسمُ الجنس[2]، ومِن أسبابِ إفرادِه كذلك في القرآن استثقالُ جَمْعِه، وهو (أرَضون)[3].

دلالة الطِّباق في لفظَي السَّماوات والأرض:

ضآلة الجاحد أمام عظمة الساجدين

إنَّ بين لفظَي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ فنًّا بديعيًّا هو الطِّباقُ، والغرضُ منه كشفُ حقيقةِ المشرك والجاحد في إعراضهما عن السُّجود لله تعالى والانقيادِ لأمره، كم هما ضئيلانِ جدًّا في مواجهة السّاجدين، فماذا يمثل هذا المعرِض عن الانقياد لربِّه سبحانه في مقابلِ انقيادِ السَّماوات والأرض ومَن فيهما لله ربِّ العالمين؟ كما

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 6.
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 6.
(3) السيوطي، الإتقان: 2/ 355.

يعطي الطباقُ استغراقًا آخر للمكان من خلال ذلك التقابلِ الدالِّ على الحصر والإحاطةِ بجميع الخلائق السّاجدة.

نكتةُ تقديم السَّماوات على الأرض:

عـــجـــائـــبُ السَّماوات أدلُّ عـــلى عـظـيـمِ القدرة

قدَّم النظمُ الكريم ذكرَ السَّماوات على الأرض؛ لعظمِها ولكونها أدلَّ على قدرته سبحانه وأبرزَ، وذلك "أنَّ السَّماواتِ والأرض تُذكرُ غالبًا في سياق آياتِ الربِّ الدالَّة على وحدانيّته وربوبيَّتِه، ومعلومٌ أنَّ الآياتِ في السَّماوات أعظمُ منها في الأرض؛ لسِعَتِها وعِظَمِها وما فيها من كواكبِها وشمسِها وقمرِها وبروجها، وعلوِّها واستغنائها عن عَمَد تُقلُّها أوْ علاقةٍ ترفعها إلى غير ذلك من عجائبها"[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أهلَ السَّماوات يغنونَ عن جميع مَن في الأرض، فلو جحدَ أهلُ الأرض جميعًا ما كان لهم ذكرٌ ولا شأنٌ، كما يُنبئ عنه جمعُ السَّماوات وإفرادُ الأرض باللَّفظ.

بلاغةُ الإطناب بعطف الخاصّ على العامِّ:

تخصيص بعض المخلوقات بالذّكر دليلٌ على مكانتها في النِّظام الكونيّ

ذكرت الآيةُ مجموعةً من المعطوفات على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهي: الشّمس والقمر وما تلاهما، وهو من عطف الخاصِّ على العامِّ، مع دخولها فيه واشتمالِها عليه؛ وذلك لظهورها وشُهرتها، وكونِها أجلَّ في عيون الناظِر من غيرها، ومِن ثمَّ تكون أدلَّ على بلوغ المقصود، وهو إثباتُ أنَّ الله تعالى غنيٌّ عن كُفر مَن كفرَ به ولم يسجد له تعالى.

بلاغة اللف والنشر:

جَمَعَ السَّماوات والأرض ونشرَ ما فيهما على التَّرتيب

في الآية الكريمة لفٌّ ونشرٌ مرتّب، حيث بدأ بذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ثمَّ ثنَّى بـ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، وذكر بعد ذلك ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾، وهي نشر لما في السَّماوات، ثمَّ ذكرَ ﴿وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۗ﴾، وهي نشرٌ لما في الأرض، مستندًا في ذلك إلى أفهام

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 74.

المخاطبين ليُعيدوا كلَّ مذكورٍ إلى ما يناسبُه، مع الحرص على العَرْض المنظَّم الَّذي يرتبطُ فيه كلُّ مذكور مع ما سبقَه.

بلاغةُ تقديمِ الآية النهارية على الليليَّة:

تقديمُ ذكرِ ﴿وَٱلشَّمۡسُ﴾ وهي آية نهاريَّةٌ على ﴿وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ وهما من الآيات الليلية، راجعٌ إلى كون الشمس أبرزَ وأظهرَ، ومنافعِها المتعلِّقة بالبشر أكثرَ وأوفرَ.

فن الطباق بين الشمس والقمر:

نور القلب كضياء الشمس ونور القمر

في قوله سبحانه: ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ طباق، حيث قابلَ فيه الشمس وهي مصدر الضَّوء في النَّهار بالقمر وهو مصدر النّور في الليل، وكأنَّ في ذكرهما معًا إشعارًا بأنَّ الإيمانَ يصنع في القلوب مِن النّور، ما تصنعه الشّمس والقمر في النهار واللَّيل من الضّياء والنّور، ويشتركان مع النجوم في الإضاءة والنور، ولكن لمّا كان نورهما أعلى من أنوار النجوم كلِّها قدّمهما عليها.

علَّةُ تقديم الآية السَّماويّة على الأرضيّة:

انقيادُ أهلِ السَّماوات جميعًا لله تعالى وأسبقيّتهم

يرجع سببُ تقديم السّاجدين في السَّماوات على السّاجدين في الأرض لسببين:

الأوّل: أنَّ السّجود في أهل السَّماوات صفةٌ عامّة فيهم لا تتخلّف، فكلُّ أهل السماوات ساجدونَ لله خاضعونَ له طائعون، ولذا قدَّمهم أيضًا في قوله سبحانه: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهًا﴾ [آل عمران: 83]، بخلاف أهل الأرض؛ ففيهم الطّائع السّاجد، وفيهم الضالُّ الجاحد الَّذي لا يسجد لله، ويُعبِّر عن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾.

الثاني: الأسبقيَّة الزمانيَّة؛ فإنَّ أهل السماوات (الملائكة) أسبقُ

وجودًا من أهل الأرض، وحوارُ اللّه تعالى لملائكتِه في قصَّة خلق (آدم) ﷺ دالٌّ على هذه الأسبقيَّة الوجوديَّة[1].

بلاغة ترتيب ذكر المخلوقات الأرضيَّة:

ترتيبُ المذكوراتِ لعللٍ معنويَّة وأسبابٍ محسوسة

في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ قُدِّم ذكرُ ﴿وَٱلۡجِبَالُ﴾ لشموخِها وعِظَم وظيفتها في تثبيت الأرض، ثمَّ قدَّم ذكرَ ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ على ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ من تقديم السَّبب على المُسبَّب؛ لأنَّ الأشجار مَرعى الدوابّ، كما أنَّ الأشجارَ أعظمُ خلقةً من الدوابِّ، وقُدِّمت هذه المذكورات على قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۗ﴾؛ لأنَّها لا تعقلُ، وسجودُ ما لا يعقل للّه أدخلُ في مقام تمجيد اللّه من سجودِ مَن يعقل؛ لإطباقِ الجميع على السُّجودِ مع أنَّها بالنّسبة لنا غيرُ عاقلةٍ كما أنّها غيرُ مكلَّفة، وقُدِّم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۗ﴾، أي: الطائعين على ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾؛ لأنَّهم عصاةٌ فجَرةٌ؛ فقُدِّم عليه الطّائعون لشرفِ الطّاعة، وأُخِّر العُصاة لقُبْحِ المعصية[2]، ونلحظ سمة الجمعية في المذكورات سواء كانت جموع تكسير أوْ أسماءَ جموع؛ للدلالة على الشمول والاستغراق، ومن ثمَّ عدل النظمُ عن (الناس) إلى تقسيمهم إلى صنفين كثيرين محافظةً على ظاهرة الشمول والاستغراق، فالكثيرانِ ساجدانِ اختيارًا أوِ اضطرارًا؛ لأنهم منقادونَ لأمرِه ومشيئتِه.

بلاغةُ العطفِ وثراء احتمالاته الدّلاليَّة:

احتمال الواو للعطف والاستئناف واستعمال اللفظ في معنييه الحقيقي والمجازي

الواوان في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ يحتمل أنْ تكونا للعطف؛ والعطفُ إمّا من عطفِ المفردات على جعلِ ﴿يَسۡجُدُ﴾ مُحتملًا لمعنى السّجود الشَّرعيّ، والمعنى اللغوي

(1) من الآيات الدالة على ذلك وهي كثيرة، قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ [ص: 71 - 72].

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 391، 392.

الَّذي هو الانقياد، ولا بأس بهذا على قول مَن يرى جوازَ استعمال اللفظ في معنييه الحقيقيِّ والمجازيِّ[1].

ويرى علماء الوقف والابتداء أنَّه بناءً على هذا التوجيه يكون الوقف على ﴿ٱلنَّاسِ﴾ وقفًا تامًّا، والواو في جملة: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ استئنافيةٌ مكوَّنةٌ من مبتدأ وخبر[2].

وإمّا من باب عطف الجمل، على تقدير: (ويسجد كثيرٌ من النّاس)، فيكون قوله: ﴿وَكَثِيرٌ﴾ مرفوعًا بالفاعليَّة للفعل المحذوف، وهو أظهر[3].

وهذا على رأي مَن يمنع استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه في كلمة واحدة؛ وذلك أن السّجود المسند لغير العقلاء غيرُ السّجود المُسند للعقلاء[4].

ويُحتمل أن تكون الواو للاستئناف، فيعربُ قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأً محذوف الخبر، والتقدير: (وكثير من الناس حقَّ له الثواب)[5] أو (مُثابٌ) لدلالة خبر مقابله عليه، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ كذا قدَّره الزمخشري، وقدره أبو البقاء: (مطيعون أو مثابون) أو نحو ذلك[6]، والأرجحُ أنْ يكون العطفُ من قبيل (عطف المفردات)، وحملُ السّجود على معنى الانقياد لمشيئة الله وتدبيره بوعي أو بغير وعي، فيكون (السّجود) من عموم المجاز، ولعلَّ الغاية مِن خلط العاقل بغيره في السّجود توجيهُ الجاحدينَ إلى السُّجود بوعيٍ واختيارٍ ما داموا منقادينَ لتدبيره وأمره بلا وعيٍ منهم، وأنَّ مَن يسجد له كلُّ المخلوقات وتنقاد لأمره فهو القادر على تمييز المهديِّ من غيره.

بلاغةُ الاحتراس بذكر الكثير دون الأكثر:

أوثر التعبير بلفظ ﴿وَكَثِيرٌ﴾ دون (أكثر) في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ للاحتراسِ عن أنَّ مقابل الأكثرِ الأقلُّ، وخصوصًا مع حمل لفظ السّجود على معناه الحقيقي[7]، فلا يلائمه التعبير بـ(الأكثر).

---

(1) أجازه بعض الشافعية من علماء الأصول، القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 33، واستحسنه هنا ابن عاشور في التحرير والتنوير: 17/ 226.

(2) الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 2/ 782، والأشموني، منار الهدى، ص: 513، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 214.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 534.

(4) السمين، الدر المصون: 8/ 245، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 534.

(5) الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 539.

(6) السمين، الدر المصون: 8/ 245.

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 226.

نوع التعريف في لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ وفائدته:

(أل) في الجنس الدالّ على الكمال

(أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للجنس بمعنى الحقيقة، وهي تفيد الكمال في ذلك الجنس، ولذا خصَّص من هذا العامِّ بعضهم، فجعلهم من الساجدين حيث قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: الكثير من الأفراد الَّذين تتحقق فيهم هذه الحقيقة، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ على هذا صفة لـ ﴿وَكَثِيرٌ﴾، وفائدة هذه الصفة بيانُ أنَّهم الكاملون في الإنسانية العاملون بقضية العقل[1]، والكثرة الأخرى لم ينسبوا للناس؛ للدلالة على أنَّهم لضلالهم خرجوا من هذه الحقيقة، وليسوا أحرياء بالوصف بالإنسانية والعقل.

بلاغةُ التَّقابل بين الجمل:

الكثرة في الساجدين للشرف وفي غيرهم للعدد

عُبِّر في جملة ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وجملة ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ بلفظِ ﴿وَكَثِيرٌ﴾ على سبيل التقابل، ولا ينبغي فهم أنَّ الكثرة المقصودة هي في العدد على سبيل التساوي ولا التقارب، فغيرُ الساجدين لله - بالمعنى الشَّرعيّ - أكثرُ من السّاجدين له، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103]، ولهذا حملوا الكثرة في كلٍّ فريق على ما يناسبها، فهي "عَلَى أن الأول كثيرون باعْتبار الشرف والفضل، والفريق الثاني كثيرون من حيث العدد"[2].

نوع الواو ودلالتها الارتباطيَّة بالسِّباق:

الواو للعطف أو الاستئناف

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ إمّا أن تكون للاستئنافِ، ويكون الوقفُ عليها تامًّا، فتكون الجملةُ استئنافيةً مكونةً من مبتدأٍ وخبرٍ، فلفظ ﴿وَكَثِيرٌ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ خبره، وإمّا أن تكون للعطف، وهي معطوفة على ما قبلها

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 35.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 33.

عطف الجمل على تقدير (يسجد)؛ على معنى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يسجدُ أيضًا، أي: كراهيةً وعلى رغمه؛ إمّا بظلِّه، وإما بخضوعه عند المكاره[1]، أوْ على تقدير (يأبى)، والمعنى: (ويسجد كثيرٌ من الناس، ويأبى كثير منهم حقَّ عليه العذابُ)[2].

براعة استعمال فعل ﴿حَقَّ﴾ دون (استحقّ):

التعبير بلفظِ (حقَّ) أقوى ترهيبًا وأرسخُ وقوعًا

جاء التعبير بالفعل ﴿حَقَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ دون أن يُقال: (استحقَّ العذاب)، والتَّعبير القرآنيُّ أقوى وأثبت لإيقاع العذاب بالفعل، فمعنى ﴿حَقَّ﴾ وجبَ وثبتَ وتقرَّر[3] عليه العذابُ من اللّه، بإبائه السّجود للّه، أمّا التعبير بالاستحقاق فلا يكفي في إيقاع العقاب، فقد يستحقُّ المرءُ العقابَ دون معاقبته فعلًا، كمَن يُعفى عنه بعد إعلامه بأمر العقاب فلا يوقَع عليه، فمعنى ﴿حَقَّ﴾ إخبارٌ بالوقوع، و(استحقّ) إخبارٌ بالحكم، فقوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أشدُّ وقعًا وترهيبًا من ذكر الاستحقاق.

غرضُ تقديم الجارّ والمجرور:

الإشعارُ بهولِ الموقفِ وشدَّةِ العذاب

تقديم الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ دالٌّ على الاختصاص والحصر، المُشعر بترهيب الموقف، فمَنْ علِم أنَّه عليه حقَّ العذابُ دونَ غيرِه، أصابه هولُ الحدث وقشعريرةُ الموقف، والاختصاص مُشتملٌ على جميعِ أفراد ﴿وَكَثِيرٌ﴾.

بلاغةُ المغايرة في الوصف:

المؤمنون هم الناس والكافرون هم أهل العذاب

حدثت مغايرةٌ في وصف كثيرٍ السابق وكثيرٍ اللّاحق في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، فقد وصفت الكثرة الأولى بالجارّ والمجرور؛ للدلالة على أنّهم المستحقونَ للوصف

(1) السمين، الدر المصون: 8/ 247.
(2) الأشموني، منار الهدى، ص: 513.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 127.

بالناس، لاستعمالهم العقل والفكر والنظر، في حين وصفت الكثرة الثانية بثبوتِ العذاب لها، والغايةُ من التوصيف بذلك الإشارةُ إلى أنهم افتقدوا الإنسانية وما تتطلبه من النظر والتفكير، واتصفوا بالحكم الَّذي نجم عن أفعالهم ومواقفهم، حتى ثبتَ لهم العذاب ووجبَ عليهم.

معنى التعريف في لفظِ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾:

الكمال في العذاب يتناغم مع العموم والاستغراق

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ للعهد، أي: عذاب النّار المعهود ذكره في القرآن، وفي كونها كذلك فقد دلّت على عِظَم العذاب الَّذي يثبتُ على الممتنعين عن السُّجود للّه والانقياد له، وتحتمل (أل) الجنسية الدالة على الكمال؛ فكأنَّهم ثبتت لهم حقيقةُ العذاب وطبيعتُها الكاملة؛ ليكون منسجمًا مع (أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في الدلالة على الكمال في الوصف.

نكتةُ اختيارِ مفردةِ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ دون (العقاب):

يُلحظ في العذاب شدَّته باعتبارِ التَّعذيب

عبَّر بـ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ دون (العقاب) في الآية الكريمة؛ لأنَّ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ هو اللفظ الأوسع معنًى، فيشمل ما دلَّ عليه العقاب وزيادة، وذلك أنَّ أهل اللغة قائلون في الفرق بين العقاب والعذاب: إن العقاب ينبئ عَن اسْتِحْقاق، وسمّي بذلك لِأنَّ الفاعِل يسْتَحقّهُ عقيبَ فعله، أمّا العذاب فيجوز أن يكون مُسْتَحقًّا وغيرَ مُستحقٍّ[1]، ومعنى هذا أنَّ بين العقاب والعذاب عمومًا وخصوصًا مطلقًا، فكلُّ عقابٍ عذابٌ، وليس كلُّ عذابٍ عقابًا، وهذا في العرف اللُّغويّ، أمّا في الاستعمال القرآنيّ، فيُلحظ في العذاب شدّته وسطوته وقوَّته؛ لأنَّه قيل باعتبارِ وقوع التَّعذيب والألم، أمّا العقاب فقيل باعتبارِ المعاقبة على الذَّنب والعقوبةِ عليه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 239.

فن الاحتباك:

الحذف والدلالة يـتـعـاونـان في تعميق المعنى

نلحظُ في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ ظاهرة الاحتباك، وهو عبارةٌ عن الحذف من الأوَّل لدلالة الثاني عليه، والحذف من الثاني لدلالة الأول عليه[1]، فقد ذكرَ في الكثرة الأولى ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ ولم يذكر ما ثبت لهم، وبقرينةِ ما ثبت للكثرة الثانية من ثبوت العذابِ لها فإنَّ الكثرة الأولى ثبت لها (وحقَّ عليها النعيم)، في حينِ حذف من الكثرة الثانية (من الناس) لدلالة الأوَّل عليه، والغايةُ من الحذفين سلبُ صفةِ الإنسانية عن الكثرة الثانية وإثباتها للأولى، والغايةُ من حذفِ ما ثبتَ لهم من النَّعيم حتّى يذهب الذهنُ إلى معانٍ عديدة في أوصاف ذلك النعيم وأنواعه، ويكون الاحتباكُ قد أدَّى الغرض منه في الاقتصار عندَ كلِّ كثرةٍ بما يهمُّها ويُناسبها.

نوع الواو ودلالتها:

الواو استئنافية أو عاطفة على محذوف

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ استئنافيَّة[2]، وقيل: للعطف على محذوف، تقديره: فمنْ يُكرم اللّه بتوفيقه لامتثالِ أمره فما له مِن مُهين ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ﴾[3]، والغرضُ من الوصل والعطف الإشارةُ إلى أنَّ السجود الاختياريَّ لكثيرٍ من الناس دليلُ الإكرام والإعزاز؛ لأنه ناجم عن وعيٍ ونظرٍ ورغبةٍ بالخضوع للخالق تعالى خضوع المحبّ لحبيبه، ومن ثمَّ استحقوا لقب ﴿ٱلنَّاسِ ۗ﴾، في حين أنَّ هؤلاءِ الجاحدينَ مُنقادون لمشيئة اللّه وتدبيره، فهم ساجدونَ بلا وعيٍ ولا اختيار، وما ذاك إلا دليلُ إهانتهم حالةَ جحودهم واستكبارهم عن مقرِّرات العقل والنَّظر الصَّحيح، فلم ينتفعوا بالجحود ولا السُّجود حتى حصلتْ لهم الإهانةُ بشكلِها الظّاهر.

(1) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: 1/ 55 - 57.
(2) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 17/ 245.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 27.

نوعُ (مَنْ) ومعناها وسر التعبير بها:

إكـــرامُ اللـه للسّاجدين اختيارًا وإهانته للسّاجدين اضطرارًا

(مَنْ) اسمُ شرطٍ في موضع رفع بالابتداء، والجواب ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾، والخبر ﴿يُهِنِ﴾، أي: يهنه الله[1]، وبعضهم يعرب (مَنْ) مفعولًا مقدَّمًا، لفعلِ ﴿يُهِنِ﴾[2]، وهذا الاختلافُ مبنيٌّ على تحليلِ الفعل ﴿يُهِنِ﴾ فمَن جعلَه متعديًا إلى مفعولٍ محذوفٍ مُراعىً في الكلام فإنَّ (مَن) حينئذ تكون مبتدأً، ومَن جعل الفعلَ ﴿يُهِنِ﴾ منزَّلًا منزلةَ اللّازم فإنّه يُعرب (مَن) مفعولًا به مقدَّمًا، وإنَّما عبَّر بـ(مَن) الموضوعة للعقلاء لبيانِ أنَّ هولاءِ الجاحدينَ هم المقصودونَ بالإهانة، فقد تركوا السُّجود الاختياريَّ وخضعوا للسُّجود الاضطراريّ، مع أنَّهم يمتلكونَ العقلَ والتفكير، ومع ذلك حُرموا وطُردوا وأُهينوا بتركِهم السُّجود الاختياري الدالَّ على الفطرة الإنسانيَّةِ الصّافية.

سر التعبير بمفردةِ ﴿يُهِنِ﴾ مادّةً وصيغةً:

عـبَّر بـالمـضـارع لإفادة الاستمرار لا مجرَّد الإخبار

فعل المضارع ﴿يُهِنِ﴾ مأخوذٌ من الإهانة والإذلال، وهو مجزومٌ لأنَّه فعلُ الشَّرط، ووزنه (يُفِل)، وفيه إعلالٌ بالحذف بسبب التقاء الساكنين بسبب الجزم، وأصله (يُهِينُ)؛ وفيه من دلالة المضارع استمرار[3] الإهانة وتكرُّرها وتجدُّدها وتنوُّعُها بين حسيَّة ومعنويَّة، كالإذلال النفسيّ ونحوه، فإنَّ الذلَّ لمّا كان يتبع الهوانَ سُمّي الهوان ذلًّا[4]، ونلحظُ في الفعل ﴿يُهِنِ﴾ إيقاعَ الهوان والإهانة فيهم، حتى يُصبحوا متصفين بالهوان والذلّ في الدنيا قبلَ الآخرة؛ لأنَّهم تركوا مقتضياتِ الفطرةِ، ولم يعملوا بأدلَّة العقل، وخرجوا على جمهور المتعبِّدين بترك السُّجود الاختياري، فكأنَّ الهوان يُصبُّ عليهم صبًّا، والإذلالَ ينزل فيهم فلا يستطيعونَ عنه فكاكًا.

(1) الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 540.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 247.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 460.
(4) العسكري، الفروق اللغوية: 1/ 251.

نكتةُ إسناد فعل ﴿يُهِنِ﴾ للفظ الجلالةِ:

الإهانةُ البالغة نـصـيـبُ مَـن تكبَّر وتأبَّى على الانقياد

بُني فعل ﴿يُهِنِ﴾ للفظ الجلالة، وأُظهر الفاعل للإشعار ببالغ المهانةِ الَّتي ينالها من تأبَّى على الانقياد للّه والسُّجود بين يديه، فإنَّه مُهانٌ أشدَّ الإهانة وأبلغَها، لكون إهانته ليستْ من بشرٍ مثله، ولكنّها من اللّه القادر على أن يبلغ به كلَّ ما يشاء من أنماط الإهانة وألوانها، وترى القرآن الكريم يركِّز في كثير من آياته على وصف عذاب الكافرين بالمُهين وليس فقط بالأليم؛ لأنَّ للإهانة من الألم النفسيِّ والمعنويِّ أضعافَ ما للألم الحسّي، خصوصًا عند هؤلاء المُستكبرين على السُّجود للّه والانقياد لأوامره، فالجزاءُ من جنس العمل؛ إذ ظنُّوا أنهم بتركهم السّجودَ الاختياريَّ يَحصَلون على عزٍّ وشرفٍ وجاهٍ دنيويٍّ، لكن كانت العقوبةُ مغايرةً لمقاصدهم وأهدافهم، فنالوا الهوانَ والألمَ النفسيَّ، وهو إرشادٌ قرآنيٌّ خفيٌّ إلى أنَّ مَن أراد العزَّةَ والرِّفعة في الدُّنيا فعليه أنْ يُلازمَ الخضوع والسُّجود لمولاه، لينالَ كلَّ مقامٍ عالٍ رفيعِ القَدْر.

نوع الفاء ودلالتها الرابطة:

تعليقُ انتفاء الجوابِ على ثبوت الشَّرط ودلالة مفهومه

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾ واقعةٌ في جواب الشَّرط، رابطة إيّاه بالشَّرط، على معنى: أنَّه لا كرامةَ لمَن أهانه اللّه، فمِن أين يأتي إكرامُه؟ ليس له من مُكْرِم، والجملةُ المبدوءة بالفاءِ في محلِّ جزم جوابِ الشَّرط، وإيثارُ النظم الكريم الأسلوبَ الشرطيَّ رسمٌ للعلاقة الطرديَّة بين الإهانة الإلهية وانتفاء المُكرم، ويدركُ بدلالة المفهوم أنَّ مَن أكرمه اللّه ووفّقَه لطاعته فلا مهينَ له.

نوع (ما) ودلالة استعمالها:

النفي بـ(ما) آكد وأوسـع مـن النفي بـ(ليس)

استعمل في جملة جواب الشرط المنفية أداة النفي (ما) حيث قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾، وهي آكدُ وأوسعُ نفيًا من (ليس)، فيما لو كان التعبير: (فليس له من مكرم)، إذ النفيُ بها يشمل نفيَ

الحال والاستقبال، أي: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾ لا في الحال ولا في الاستقبال، فمَن ذا الَّذي يمكنه إيصالُ الإكرام إلى مَن أهانه الله تعالى، وهذا وجه استعمالها دون (ليس)، كما أنَّ النفي بـ(ليس) يجعلُ جملةَ الجواب فعليّةً، والنفيَ بـ(ما) يجعلها جملةً اسميَّةً، ومعنى الاسميّةِ يتلاءم مع دوامِ النفي واستغراقِه، ولا يتأتَّى هذه الاستغراقُ إلا بمجيء (مِن) الزائدة المؤكِّدة، وهي إنَّما تأتي في السّياق القرآنيِّ مع (ما) دون (ليسَ).

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

اختصاص الله تعالى بالإهانة للمستكبرين والإكرام للطائعين

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ الواقع خبرًا مقدمًا على ﴿مِن مُّكْرِمٍۚ﴾ الواقع مبتدأً مؤخرًا؛ لإفادة الحصر والاختصاص، والمعنى: ليس له مِن مكرم، هو فقط من أهانه الله تعالى، بخلاف مَن يكرمه الله أو تتوجه إليه الإهانة من غيره تعالى، فإنَّ الله تعالى يهيِّئ له في الدنيا والآخرة وسائل الإكرام، ويسخِّر له مَن يُكرمُه، وفي الآية توجيهٌ لطيفٌ للمؤمنين المكرَّمين من الله أنَّهم قد يتعرَّضون في دنياهم إلى إهانة مِن هؤلاء الأذلّاء بسبب موقفهم وسجودهم وخضوعهم لمولاهم، فإنَّ هذه إهانةٌ صوريّةٌ وليست حقيقيّةً؛ لأنَّ مَن أكرمه الله بطاعته لا يكون له مهينٌ إلا بحسب الظّاهر، وما هو في حقيقته إلا إكرامٌ ورفعُ درجةٍ وامتحانٌ.

نوع اللام ودلالتها:

سلب الإكرام عمن سوى الله تعالى

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾ لامُ الاختصاص، الدالَّةُ - مع مجرورها، وبتقديمهما على المبتدأ ﴿مُّكْرِمٍۚ﴾ - على أنَّ هذا الحكم خاصٌّ بمن أهانه الله بعذابه وانتقامه، فلا أحدَ يُغني عنه من الله شيئًا، ويُفهَم من سلْب اختصاصِ الإكرام عن أيِّ أحد لَمن أذلَّه الله وأهانه اختصاصُ الله تعالى بالإكرام كما أنَّه المختصُّ بالإهانة على سبيل الحقيقة.

دلالةُ تنكير اسم الفاعل:

استمرار الهوان واستغراقُ النفي

التعبير باسم الفاعل ﴿مُّكۡرِمٍۚ﴾ منفيًّا يدلُّ على انعدام وجود مَن يملك أنْ يُكرم من شاء الله إهانتَه، ولذلك نكَّره؛ ليفيدَ العموم، فالنكرةُ في سياق النفي تعمُّ، كما هو معلوم، وصيغة اسم الفاعل تدلُّ على استمرار الحدث المنفيِّ وهو (الإكرام).

فنُّ الطِّباق بين ﴿يُهِنِ﴾ و﴿مُّكۡرِمٍۚ﴾:

التلاحم وتأشير العلة داخل الخطاب

بين قوله: ﴿يُهِنِ﴾ و﴿مُّكۡرِمٍۚ﴾ طباقٌ، فكل من الإهانة والإكرام متضادّان، فلا إكرامَ لمن أهانه الله، ولا إهانةَ لمن أكرمَه الله، وهذه ثمرة هذا الطباق المنسجم مع الطباق التركيبي في قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾، وبهذا عرف أن السّاجدين له بإكرامه لهم، والجاحدين والرّافضين للخضوع له بإهانته لهم.

بلاغة الاكتفاء:

إهانةُ مَن رفض الـذُّلَّ لخالقه تعالى لونٌ في الإبانة

آثر النَّظم الاكتفاءَ بجملة: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾، فذكر الإهانة وطوى الإكرام، فلم يقل: (ومَن يُكرمِ الله فما له مِن مُهين)؛ لأنَّ السياق لإظهار القدرة، وإظهارُها في الإهانة أتمُّ، كما أنَّ أصل السياق للتهديد[1]، وأنَّ الثاني دالٌّ على الأوّل فاكتُفي به، ونكتةُ الاكتفاء تسليط الضَّوء على الإهانةِ، فهي مدار العِبرة، ومثار الفرحة للخاضعين.

بلاغة جملة التَّعليل والفصل:

التأكيد في جملة التعليل مفيدٌ للاهتمام لعدم وجود المنكِر

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ في محلِّ العلَّة للجملتين المُعترضتين - وهما جملتا ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ و﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ - لأنَّ وجود حرفِ التوكيد في أوَّل الجملة مع عدمِ المنكِر يُمحِّض حرف التوكيد إلى إفادة الاهتمام، فنشأ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 27.

من ذلك معنى السببيَّة والتعليل، فتغني ﴿إِنَّ﴾ غَناءَ حرفِ التعليل والسببية[1]، كما أنَّ الجملة فُصِلت ولم تعطف على ما قبلَها؛ لأنها بمنزلة جوابٍ عن سؤالٍ مقدَّر مفاده: لمَ اختار مولانا تعالى الهدايةَ لبعضِ مخلوقاته فسجدوا وخَضَعوا له، واختارَ لآخرينَ جحودَهم فحقَّ عليهم العذابُ، ونالوا الهوانَ والذِّلَّةَ ممّا اقترفوا من تركٍ للسُّجود والانقياد؟ فأجاب عن ذلك بأنَّ الله يفعلُ ما يريدُ لحكمةٍ عظيمةٍ وبالغةٍ في مخلوقاته، فبَيْن الجملتين شبهُ كمالِ الاتصال، ولذا تُرك العطفُ والوصلُ بينهما.

بلاغةُ إظهار ما حقُّه الإضمار:

انفرادُ كلِّ غرضٍ بنفسِه ممّا يستدعي إظهارَ الاسم الجليل بنفسِه

أبرز النَّظمُ الاسمَ الجليل: ﴿ٱللَّهَ﴾ في موضع الإضمار في جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لتقدُّم ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾؛ لما فيه من جلال وهيبة تهزُّ القلوبَ هزًّا، وتُرهِبُ العُتاة والمتمرِّدين على طاعةِ ربِّهم والانقياد له، ولبيان استقلال كلِّ غرضٍ في الجملتين بنفسِه، كما أن ذكر الاسم المستجمع لجميع صفات الكمال والعظمة يفيد تعليل فعله لما يشاء، فكأن المعنى: (يفعل ما يشاء؛ لأنَّه الله)، فيكون كدعوى الشيء ببينة وبرهان.

بلاغة مجيءِ المسند فعلًا مضارعًا ﴿يَفۡعَلُ﴾:

طلاقةُ القدرة الإلهيَّة بفعل كلِّ ما تعلَّقت به إرادته

جاءَ التعبيرُ بالفعل المضارع ﴿يَفۡعَلُ﴾؛ لما تُفيده الصّيغة من طلاقة الزمن وتجدُّد الوقوع واستمراره، بمعنى أنَّه سبحانه في أيِّ وقتٍ يشاءُ يعملُ أيَّ عملٍ يشاء، ممّا تعلَّقت به إرادتُه سبحانه، "ولو جاز أنْ يُمانعَه غيرُه ولو في لحظة، لم يكن فاعلًا لما يشاء"[2]، وحاشاه سبحانه أنْ يُمانعَه أحدٌ في مملكتِه وسلطنتِه، وهو العزيز الَّذي لا يُغالَب.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 227.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 27.

مناسبةُ استعمال ﴿مَا﴾ في سياقها:

التعبير بـ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ مُتسقٌ ومُتناسبٌ مع السّياق؛ لأنه يعبَّر بها حالَ قصدِ الجمع والشمول مع الاختصار، فإنَّ لفظ ﴿مَا﴾ يُطلقُ على كلِّ شيء؛ لإبهامه وعمومه.

نكتةُ التَّعبير بالمضارعِ ﴿يَشَآءُ﴾:

كما أفادَ الفعلُ ﴿يَفْعَلُ﴾ طلاقةَ القدرةِ فيما خصَّصته لها الإرادة، فإنَّ الفعل ﴿يَشَآءُ﴾ يفيدُ طلاقةَ الإرادةِ فيما تتعلَّقُ به من تخصيصِ المُمكِن بالوقوع في مكان وزمان مُعيَّنين، فتتعلّقُ القدرةُ بإيجاده وإخراجِه إلى الوجود.

غرضُ حذفِ مفعول فعل المشيئة:

حـذفُ مفعول المشيئة لإفـادة التعميم

حُذف مفعولُ المشيئة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لإفادة التعميم في كلِّ ما تتعلّق به مشيئتُه سبحانه من الممكنات، أي: يفعلُ ما يشاء فعلَه، والأصلُ عدمُ ذكرِ مفعولِ (المشيئة) إلّا إذا تعلَّقَ بذكره غرضٌ بيانيٌّ[1].

(1) الزركشي، البرهان: 3/ 170، 171.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»